آليات الخطاب الديني المعاصر أمام تحديات العولمة

عبد اللطيف حني

قسم اللغة العربية وآدابها،معهد الآداب واللغات – المركز الجامعي الطارف

بسط منهجي :

يحظى الخطاب الديني بتأثير بالغ في توجيه وتشكيل فكر وسلوك ووجدان المجتمع المعاصر، لأن الدين المكون الأساسي والفاعل في الهوية الفردية، وعلى أسسه تبنى جميع المبادئ والقيم الاجتماعية، لذلك يبرز الخطاب الديني في عصرنا هذا كشكل من أشكال التواصل مع الناس، وكقوة مؤثرة في توجيه قيمهم وسلوكياتهم الاجتماعية، وكمرتكز يعتمد عليه في صقل الثقافة الدينية لغالبية المجتمع، وفي ظل ما يشهده العالم من تداعيات موجات العولمة بمختلف أشكالها نسمع بدعوات الكثير من المفكرين والدارسين إلى ضرورة تجديد الخطاب الديني، بواسطة جملة من الآليات والوسائل التي تكفل تواصله وتأثيره في المتلقي المدمن على الفضائيات، التي أصبحت مصدرا مهما يأخذ منه ثقافته الدينية لعدة أسباب ترجع إلى طبيعة العصر ومميزاته .

كما يشكل الخطاب الديني قضية مهمة تشغل بال كل مفكر إسلامي واع ومطلع عن كثب بمجريات وتحولات عصرنا الذي تكالبت فيه القوى التغريبية على امتنا أضحت تعاني من الكثير من الأزمات على مختلف الأصعدة كما فرضت عليها تحديات عديدة عليها أن ترفعها منها الفكرية والسياسية وخاصة قضية الخطاب الديني، لأنه الخطاب في مفهومه الاصطلاحي هو أداة التبليغ والتواصل والحوار والتأثير في أبناء الأمة، وبواسطته نستطيع توجيه الجهود وتجنيد الأفكار وشحذ الهمم لتحصين جسد الأمة ضد ما يسمى العولمة الكاسحة واستلاب الهوية والشخصية الوطنية، «وهذه الأداة هي مقياس نضج الأمة ومعيار مقدِرتها على ممارسة ذلك التبليغ والتواصل والحوار وعلى إحلال نفسها المكانة اللائقة بين الأمم، ومن ثم نجاحها أو فشلها في إقناع الآخرين بموقفها ووجهات نظرها في مختلف المسائل والشؤون»[1]

أولا–مفهوم ومكونات الخطاب الديني :

1–مفهوم الخطاب لغة : ورد في لسان العرب أن «الخطاب هو مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، والمخاطبة مفاعلة من الخطاب»[2] وقد تضمن الذكر الحكيم مادة خطب في عدة مواضع، حيث قال تعالى:[وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ] [3] وقوله تعالى: [إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ[4] ويقصد به «وعَزَّنِي في الخطاب " أي غلبني، ويقال أعزِز عليَّ بما أصاب فلانا أي أعظم عليَّ، ولا يقال: أعْزَزْتُ.» [5] وقال جل شأنه: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [6] وقوله سبحانه وتعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[7] وبذلك يكون المدلول اللغوي هو توجيه الكلام من شخص لآخر، يتضمن توجيها أو أمرا أو طلبا .

عندما نعود إلى مصادر الفكر الإسلامي لتحديد مفهوم الخطاب الإسلامي اصطلاحا نجده أنه «كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكاتب، ويفترض فيه التأثير على السامع أو القارئ، الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التي توفيها» .[8]

وعليه فالخطاب هو إيصال الأفكار إلى الآخرين بوساطة الكلام المفهوم، واللغة في ذلك هي أداة الخطاب ومحمله للمتلقي، وهي وعاء لأفكاره ومضامينه التوجيهية.[9]

وبذلك يقصد بالخطاب الكلام الموجه للأفراد قصد التوعية والإفهام المعبر عن الأحكام الإسلامية والمفسر لمختلف الظواهر الدينية في صورتها التوفيقية المستمدة من الوحي أي مصادر التشريع الإسلامي أو في صورتها التوفيقية المستقرة في الفكر الإسلامي وما توصلت إليه جهود العلماء والمجتهدين والتي حازت إجماع الأمة ولم تعد عرضة للخلاف أو مطية للتأويل والتأويل المضاد.

وهو كل فكر أو فقه أو أدب أو فن أو غير ذلك بشرط أن يكون صادرا من مشكاة وتعاليم الإسلام ويعبر عن صبغته التشريعية والفقهية والعقدية، ومن ثم فإنه عملا بمفهوم المخالفة كما يقول الأصوليون« فإن أي خطاب لا يتحقق فيه شيء من هذه الصبغة الإسلامية لا يمثل بيقين الخطاب الإسلامي لأنه لا يساير منهجه ولا يتفق مع طبيعته»،[10] وينطوي تحت هذا النوع من الخطاب كل التنظيرات الفقهية والفكرية التي من شانها التعبير التفكير الإسلامي التوعوي والتوجيهي .

2–مكونات نص الخطاب الديني المعاصر :[11]

إذا تفحصنا الخطاب الديني نجده يعتمد في بنيته على مكونين أساسين هما :

أ- المكون النقلي (الشرعي) :

وهو ما جاء به الوحي الإلهي من قرآن وسنة نبوية صحيحة وهو أصل الخطاب الديني الإسلامي ولا يحيد عنه أبدا لأنه يمثل منطلقه ومرجعيته الثابتة الدائمة منه يستقي مبادئه وأسسه وموضوعاته كما يجعله الركيزة الأولى في الاستشهاد وقوة التأثير، لكونه صادرا عن الله تعالى كما يعتمد الخطاب الديني على القرآن والسنة النبوي في الصياغة اللغوية والتصوير البياني، جمالية الألفاظ والتعابير التي ترسم الفكرة المراد توقيرها لدى المتلقي، فالمكون الشرعي هو المرجعية الأساسية للخطاب الديني ومن أجله وجد ولإبلاغه خلق ورتب

ب-المكون العقلي(البشري):

يعتمد الخطاب الديني على الجهد الفكري البشري وتظهر بصماته جلية وواضحة في بنيته ويقصد به «ما فهمه واستنبطه البشر من النصوص الشرعية وما نتج عن ذلك فكرا كان أو فقها أو علوما وأدبا. لذلك فهو فرعٌ للمكون الأول ومؤسس منه وإليه». [12]

وبذلك فالمكوّن النقلي «قد أكسب الخطاب الديني مصدره الرباني خصائص الربانية التي تمتاز بالشمول والثبات والتوازن والمرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، ودعم فيه خاصية التأثير المباشر على المخاطب كونه يؤمن بما جاء في التنزيل ويعمل به، ولا يستطيع الخروج عن نصوصه، فالقرآن هو الدعامة الأساسية للخطاب الإسلامي»[13]، لذلك نستطيع أن نكتشف بمعاييره كلَّ خلل واضطراب في واقع المجتمع، كما نستطيع بحكمته وصدق قوله أن نعالج هذه الآفات .

غير أن الخطاب الديني الإسلامي بمكونيه يمتاز بخاصية فريدة من نوعها وهي خاصية الثبات، فإذا كان أي خطاب رهينا للتطوير والتبديل والتغير حسب الظروف والملابسات، دون تحفظ أو اشتراط فإن خطابنا الإسلامي له وضعه الخاص، «فهو لا يتغير ولا يتبدَّل في جوهره، أي في ثوابته الأساسية المرتكزة على مكونه العقلي مهما تغير الزمان والمكان والملتقى، وبغير هذه الثوابت، أو بالمساس بها لا يكون إسلاميا، ولا يمثل حقيقة الإسلام وخصائصه»،[14] ويحظي الخطاب الديني بالمكون الآخر وهو النقلي، حيث يكون فيه الاجتهاد والتطوير والبحث بما يراعي المخاطبين وظروفهم العامة والخاصة زمانا ومكانا ويلاءم مع مستجداتهم المعاصرة، يقول الدكتور يوسف القرضاوي:«وإذا كان المحققون من أئمة الدين وفقهائه قد قرَّروا أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، والفتوى تتعلق بأحكام الشرع فإن نفس هذا المنطق يقول :إن تغيير الدعوة أو الخطاب يتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال أحق وأولى» [15]

ثانيا-عتبات وأنواع الخطاب الديني المعاصر :

1- عتبات الخطاب الديني المعاصر: ويقصد بالعتبة الدرجة والمستوى من ناحية الموضوع والفئة الملقاة عليها حيث يلقى الخطاب الديني في مناسبات وأمكنة وفضاءات مختلفة، ومن خلالها يتوجه بمضمونه التوجيهي والشرعي للمتلقي، ويرتبط الأثير بالمكان الملقى فيه، كما يتحدد مستواه حسب درجة المتلقين، ومن خلال فضاءات الإلقاء يمكننا تقسيم مستويات الخطاب الديني إلى قسمين هما :

أ-الخطاب الديني الداخلي أو المحلي: ويقصد بالداخلية أو المحلية هي الجماعة المتعارفة والتي تتقاسم الظروف والحال نفسها ولها منهج اجتماعي وعقدي موحد وفيها يتوجه الخطاب إلى فئات متفاوتة، كالطفل والشاب والفتاة والمرأة والرجل، كل بحسب مستواه التعليمي أو الثقافي، وبحسب موقعه ومهنته وظروفه الخاصة، وما لاحظه الدارسون والباحثون على هذا الخطاب هو عدم مراعاته أحيانا طبيعة هذه الفئات والشروط المتطلبة لذلك والفروق الحاصلة بينهم لكون كل فئة تمتاز بمستوى وموضوعات خاصة بها، ويتجلى هذا في مظاهر كثيرة منها :[16]

1-غياب الرؤية الفكرية المتحدة، والمشروع الدعوي الموَّحد الذي يصب في الأهداف المسطرة نفسها، ومن ثم افتقاد الخطاب الإسلامي المتفق عليه بين كثير من مؤسسات الدعوة ورجالات الفقه والشريعة، وكذلك غياب الفتوى المتفق عليها في كثير من الأمور التي تهم الأمة وتمس شؤون دينها، وكل ينظر حسب رؤيته وعلمه منطلقا من إيمان راسخ واعتقاد صحيح انه على صواب، مثل رؤية الهلال، وتحديد العيدين، والفوائد المصرفية...الخ .

2-تعطيل المؤسسات والمنابر المتخصصة والمؤهلة لتقديم المعرفة الإسلامية الصحيحة في بعض البيئات الإسلامية أو عرقلتها أو توظيفها لخدمة أغراض خاصة لا تعكس طبيعة حقيقة الخطاب الذي يبتعد عن خدمة الأهواء والمصالح الخاصة

3-الالتزام بمذهب فقهي أو عقدي معيّن، والانطلاق منه في تفسير الظواهر المعاصرة للمسلمين في وسائل الإعلام والثقافة وإصدار الفتاوى الدينية من خلاله، ثم تصدير هذا التوجه المذهبي الضيق إلى عامة المسلمين في العالم، بمختلف الوسائل والأساليب .

4-التشبث برأي واحد في المسألة ومصادرة جميع ما عداه من وجهات النظر، والتشبث بالانفراد بالفهم والمسؤولية عن الدين دون البحث في منطلقات الرأي الآخر ويظهر هذا من خلال وسائل الإعلام التي تتبنى رأيا في مسالة فقهية غير مكترثة بالآراء الأخرى [17]

5-تجاهل القضايا المعاصرة التي تفرضها العولمة من انتشار الثقافات الغربية، والتعامل اليومي والمضطر مع غير المسلمين، وعمل أقلية مسلمة في مجتمع غير المسلمين، والانتشار الواسع للبرمجيات والإعلاميات التي لا تخضع للمعايير الإسلامية وغيرها من مظاهر العولمة التي لم يجدد فيها الخطاب الديني المعاصر نظرته فيها.

ب – الخطاب الديني الخارجي أو العالمي :

من خلال المستوى الذي عليه الخطاب الديني محليا وما يسوده من اضطراب وقصور أمام تحديات المعاصرة التي تقضي التخصص وسعة الاطلاع ومعرفة الآخر الذي يشكل الطرف المتعامل معه، وافتقاد للرؤية الشاملة الموحدة والأهداف المتفق عليها ، فإن هذا الخطاب على مستوى العالم ضعيف ومتخلف جدا عن منطق العصر وآلياته ومناهجه، وبعيد عن فهم مخاطر العولمة التي اكتسحت عقول أبنائه ودخلت بيوت مجتمعاته بدون استئذان عن طريق وسائل الإعلام بجميع أنواعها والبرمجيات والانترنت، بل لولا جهود بعض المفكرين والباحثين الأكاديميين القليلة المتناثرة لقلنا إنه غائب غير حاضر بشكل فعال، ومع صعوبة تشخيص هذا الوضع وتحديد ملامحه فإنه يمكن إدراك الملاحظات الآتية :

1-يمثل الحوار الإسلامي المسيحي أحد السبل التي حاولت من خلالها عدة منظمات ومؤسسات منذ عدة عقود إيصال خطابها الإسلامي في عدة ملتقيات معروفة كحوار الأديان والحوار بين الشرق والغرب والمناظرات التي تقام بين العلماء، وهو امتداد سنة حميدة لذلك الذي كان يجريه أسلافنا مع أهل الكتاب عبر عصور السيادة الفكرية والحضارية، وفيها تبرز وتظهر قيمة وأهمية الخطاب الديني الفعال والممنهج والمبني على أسس علمية متينة. (18)

2-قليلة تلك الجهود التي اتجهت إلى شعوب العالم بخطاب إسلامي علمي وموضوعي وخالص ومعظم هذه الجهود فردية وعِصَامية، وهي رغم قلتها إلا أنها محاولة تحمد لأصحابها قد فهموا عصرهم ووعوا الأخطار التي تتجهم بمجتمعاتهم، وأشهر مثال في هذا المجال ما قدمه وقام به الداعية المرحوم: "أحمد ديدات" في مناظراته مع أقطاب المسيحية، وكذلك ما قدمه المفكر الإسلامي "وحيد الدين خان" ولا ننسى جهور علماء النهضة الحديثة كالشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدو وآخرون أسهموا بتقديم آثار علمية جليلة بأكثر من لغة أجنبية، كلها جديرة بإعادة النشر في طبعات متميزة، ليتم توزيعها في مختلف أنحاء العالم.

2-أنواع وصور الخطاب الديني المعاصر :

مر العالم بظروف غامضة وأحداث عالمية غيرت أجندته وجعلت الكثير من الدول تعيد حساباتها خاصة حادث الحادي عشر من سبتمبر، وفي ظل هذا الانعراج الخطير تعددت أنواع الخطاب الإسلامي بخاصة والعربي عامة، معبرة عن آراء أصحابها وممثلة لمختلف التيارات والانتماءات، والمتتبع للخطاب الإسلامي بخاصة يمكنه أن يلاحظ أنواع الخطاب التي يمكن استخلاصها من مجموع الملاحظات والملامح السابق ذكرها فهي الآتية (19) :

أ-خطاب الوسطية الإسلامية: الذي تمثله مدرسة الإحياء والتجديد والجمع بين الأصالة والمعاصرة ومواجهة تحديات وأخطار العولمة التي يعشها المجتمع الإسلامي ، ومواجهة الأحداث بواقعية ومرونة وحكمة ويتصدر هؤلاء :الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور محمد عمارة، والشيخ محمد الغزالي، وآخرون .

ب-خطاب التيارات الصوفية : الذي يرتكز على التجارب الروحية وعلم القلوب والتأملات ويصدر عن فرق متعددة، ويشوب هذا الخطاب شوائب من الدروشة والخرافات والانحرافات .

ج-الخطاب السلفي النصي :وهو ما يصدر في بعض البيئات التي تلتزم بمذهب معين يتبناه النظام القائم ويوظفه لصالحه، ويلتزمون بنص معين لا يحيدون عنه أبدا بدعوة الحق والثبات .

د-خطاب الرفض والاحتجاج والعنف: وتمثله نسبة ضئيلة من الناس، وأكثرهم من شباب المغرر بهم من العاطلين والمحبطين في حياتهم، ومعظمهم متحمسون ومن ذوي ثقافة سطحية في الشريعة الإسلامية ويخوضون فيها بداعي العاطفة والحماس الزائد. (20)

ونتيجة تطور الحياة المعاصرة وما توجهه من تطور على كافة الأصعدة فإن للخطاب الديني« صورا متعددة بين مقروء ومسموع ومرئي، وتتمثل في خطبة الجمعة والوعظ والإرشاد والصحف والمجلات الشرعية والكتب العلمية، بالإضافة إلى الأشرطة الدينية والأقراص الممغنطة والقنوات المسموعة كالإذاعة، والمرئية كالتلفزيون لما تقدمه من برامج دينية، والشبكة الدولية للمعلومات "الإنترنت"، واللقاءات العلمية والندوات والمؤتمرات، وأخيرا الدراما التي تقدم الخطاب الإسلامي على شكل مسلسلات وأفلام دينية، وهي من أكثر الوسائل قبولا عند الناس» .(21)

ثالثا- تحدّيات العولمة التي تواجه الخطاب الديني:

1- الانفتاح على الثقافة الإنسانية العالمية: يعاني الخطاب الديني من مسألة الانغلاق على الذات، ورفض الأفكار في الثقافة العالمية، وعدم مسايرتها أو مناقشتها وإغلاق الباب في وجه التبادل الثقافي والفكري والإنساني مع العالم، «فالعولمة الفكرية والثقافية باتت تتحدّى مضمون الخطاب الديني التقليدي في شرقنا العربي».(22) ومواقع شبكة الإنترنت والدردشة ومختلف البرمجيات تقتحم كلّ منزل وكلّ فكر. «ولا بدّ للخطاب الديني من أن يطوّر نفسه ليصبح

خطاباً دينياً يحاكي المستجدّات والتطوّرات الدينية والثقافية والإنسانية العالمية. أي أن يرقى هذا الخطاب إلى مستوى العالمية والشمولية في التفكير. وأن يكون مرآة تعكس الواقع المحلّي بمنظور عالمي، ويكون أثر المحلّي واضحاً في العالمي».[23] فالانعزالية لم تعد تنفع في عصر الانفتاح وسقوط الحواجز الفكرية والثقافية بين الناس والمجتمعات حيث أضحى العالم قرية صغيرة بواسطة حداثة الاتصالات وثورة المعلومات. «إنّ مشكلة الخطاب الديني السائد أنّه لم يصل إلى مرحلة من التطوّر ليستطيع معها مخاطبة عقلية الغرب بلغة يستطيع الغرب أن يفهمها بعيداً عن أسلوب الوعظ والترغيب والترهيب، ولا يستطيع أن ينقل أفكاراً وفقهاً وتراثاً ولاهوتاً يؤثّر في الذهنية الغربية ويزيل الفكر النمطي السائد حالياً عن شعوبنا العربية، ويتحدّث عن غنى التراثات الشرقية الدينية وقيمها السامية» .[24]

فبعد الخطاب الديني عن هذه التحديات العالمية وعدم اندماج أصحابه فيما يعيشه العالم من تطور مذهل على مختلف الأصعدة جعله بعيدا عن الثقافة الغربية التي أصبح الفرد العربي يعيشها ويتمثل بها وأصبحت تغري أبناءه ببهرجتها ولمعان بريقها، فبعد المتدينين عن الثقافة العالمية بدعوى النجاة بالنفس وعدم الوقوع في الخطأ جعل الخطاب الديني يعيش حالة الانعزالية والبقاء في نمط وأسلوب قديم غير مؤثر وغير جذاب مما جعله لا يقوم بمهمته المطلوبة .

2-الحوار وقبول الآخر: إنّ ما نلاحظه هو أنّ أغلب الخطابات الدينية هي خطابات إنشائية فيها شيء من نبذ الآخر وعدم قبوله والتنفير منه ونعته بأوصاف منفرة تظهر فيه الرفض، وفيها شيء من التشدّد والتعصّب المذهبي والطائفي تغذّيه أفكار بعيدة عن حقيقة الدين وتعاليمه.« فما زالت الخلافات المذهبية الداخلية بين أبناء الدين الواحد تأخذ حيّزاً هامّاً من فحوى الخطاب الديني، تؤجّجه العصبية الطائفية من جهة، والتأويلات الخاطئة عن الآخر من جهة أُخرى»،[25] وربّما بعض التيّارات الفكرية الغربية المغرضة غذت هذه الهفوة ودعمتها لصالحها. وفي التراث الديني المسيحي هناك قصص إنسانية تتحدّث عن الصراع وعدم قبول الآخر مثل: قابيل وهابيل، ويوسف وإخوته وغيرهما. «والقارئ لهذه القصص يرى أنّ مسألة قبول الآخر والاعتراف به هي مسألة قديمة في التاريخ ولكنّها متجدّدة في سياق أحداثه. فقبول الآخر لا يعني بالضرورة أن يكون الآخر مماثلاً ومشابهاً ومطابقاً لي، بل يعني القبول به على ما هو عليه من شكل ولون وعرق ودين وفكر وثقافة وانتماء»[26] وهذا بحدّ ذاته تحدٍّ يواجه فحوى الخطاب الديني السائد الذي ينفي الآخر ولا يقبل به شريكا في هذا العالم، ولا يقبل بالتعدّدية، ولا بالحوار مع الآخر لمجرّد أنّه مختلف. ويفترض أيضاً تنشئة الخطباء على هذه المفاهيم السامية لدفع الناس إلى التفكير والإبداع والمعايشة في ظل هذه المتغيرات العالمية .

3-التخلّف الحضاري: يشكل التخلف الحضاري تحدٍّ آخر يواجهه الخطاب الديني في وقتنا الحالي حيث إنّ تراجع الحالة الثقافية والعلمية والفكرية وصلت إلى مراحل غير مسبوقة في تاريخ العرب، وأصبحت امة العلم والعلماء تعاني مشاكل التخلف العلمي والحضاري، وازداد عدد الجهلة والأمّيين والمتزمّتين الذين يشكّلون جماعات عنف وتطرّف لم تفهم الإسلام على حقيقته وأصوله. أضف إلى ذلك الصراع الفكري السائد بين أنصار التحديث اعتماداً على تجارب الغرب، وبين أنصار الاكتفاء بما هو محلّي خوفاً من ضياع الهوية الثقافية والدينية أي أنصار المعارة وأنصار المحافظة. «وقد يصل هذا الصراع أحياناً إلى شكل من أشكال التجاذب والتصادم والحرب المعلنة وغير المعلنة بين التيّارين الفكريين، يؤدّي بالنتيجة إلى تشتّت فكر الشخص المستقبِل، وأحياناً أُخرى إلى نفوره من الخطاب الديني» .[27]

4-التخلف الإعلامي: يشكل الخلف الإعلامي تحدي عظيم أمام الخطاب الديني الذي همش منه نظرا لسيطرة الغرب على البرمجيات الإعلامية وتسريب ثقافته للمجتمع العربي وعاداته وتقاليده واعتقاداته رغم أن هناك جهودا على المستوى الإعلامي العربي في بث قنوات فضائية تلفزيونية وإذاعات سمعية دينية تعنى بالخطاب الديني لكنها قليلة أمام الكم الهائل للبرمجيات الغربية التي تفرض نفسها على المشاهد العربي و تقنعه بثقافتها وتجعله آليا يقلدها .

رابعا-آليات الخطاب الديني لمواجهة تحديات العولمة :

بعد أن عرضنا لمختلف التحديات المعاصرة التي فرضت على الخطاب الديني في عصر العولمة لابد لهذا الخطاب من آليات وأدوات لكي يستطيع مواجهة وصد مختلف العقبات التي تحول بينه وبين تحقيقه أهدافه وتحجبه عن مخاطبة وجدان الإنسان بل وتوجهه إلى الخير وتحقيق ذاته وثقافته، لذلك على الخطاب الديني المعاصر أن يكون :

1-خطاب حضاري : إنّ الارتكاز على المبدأ الحضاري في الخطاب الديني لهو آلية مهمة لرفع التحدي والرد على الهجمات المتكررة عليه، إذ هو من صميم الدعوة الإسلامية التي تسعى إلى تيسير ما يعترض حياة الناس من صعوبات بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية، والتكيف مع ظروف العصرنة والتطور والتفتح على العوالم كلها والتعايش معها وفق أسلوب حضاري راق يعكس تحضر الإسلام

والمسلمين منذ فجر التاريخ، فالحوار الجادّ والملتزم يغيّر الكثير من المفاهيم المغلوطة عن الآخر ويبعث الأمل في النفوس نحو عيش في مجتمع تسوده المودّة والإخاء والعدل والمساواة والحرّية بين أبناء الوطن الواحد إنّنا بحاجة اليوم أكثر ممّا مضى إلى خطاب ديني يعزّز الشراكة في الحياة وفي الأوطان، ويزيل أسباب الخوف والنفور من الآخر، الحوار بين الأديان وتطوير أسلوب الخطاب الديني من أهداف الحوار بين الأديان تغليب أسلوب الحوار الديني في مجال العلاقات بين الأديان. وتعد هذه نقلة فكرية نوعية في أسلوب التعامل بين الأديان تنهي قرونًا من تاريخ الجدل الديني الذي ساده التعصب الديني، وحركته أسباب الدفاع التي نظرت إلى علاقات الأديان بعضها ببعض على أنها علاقات تحدٍ وصراع ومنافسة، وهي أسباب أدت إليها عوامل تاريخية ودينية معروفة في التاريخ الماضي للأديان»،[28] وإننا في حاجة على خطاب حضاري يقوي فينا قيمنا ويجعلنا نعتز بها حتى نتعايش مع الآخر دون استلاب ودون أن يؤثر فينا بسلبياته، ودور الخطاب الديني أن يرسخ فينا جدلية المحافظة على أصالتنا وقيمنا وحضارتنا ومعاصرة من نعيش معهم في عالمنا المعاصر والاستفادة من إيجابيات حضارتهم و تطور علومهم وفتح أبواب الحوار معهم دون أن نقصيهم من حياتنا بدعوى المخالفة في الديانة.

يجب أن يكون الخطاب الديني يؤمن بواقع الاختلاف بين الناس في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، كما أنّنا نتطلّع إلى خطاب يعزّز حالة الحوار الحياتي والحضاري الذي يؤمّن مناخاً للتوافق حتى على المتناقضات، آمناً لإزالة الأحكام المسبقة عن الآخر، وتبيان القواسم المشتركة بين الأديان. فالخطاب الذي يشجّع على الحوار إنّما يؤكّد مبدأ الخروج من الذات لمعرفة الآخر وفق ما هو عليه، لا كما أريد أن أتصوّره .

2–خطاب جامع عالمي: يحتاج الخطاب الديني في عصرنا إلى أن يتماشى مع متطلّبات الإنسان في العصر الحالي بدون التنازل أو المساس بجوهر الدين وأصوله.«فيكون خطاباً منفتحاً على الأديان والثقافات العالمية، متواصلاً معها، لا يخشاها، ولا يصطدم معها، ولا يذوب فيها، بل يرتقي إلى نقدها بدون الوقوع في فخّ التحفيز على الكراهية، وممارسة العنف المعنوي والفكري اعتماداً على تفسيرات خاصّة للنصوص».[29] يحتاج الخطاب الديني إلى أن يسمو إلى منطق الحفاظ على الكرامات والحرّيات والعدل والمساواة. ويستطيع الخطاب الديني أن يعاصر الحدث دون أن يتأثّر بالمضمون ودون أن يخاف من الأفكار المستوردة ومعاصرة القضايا التي يعيشها المسلمون، ويكون حاضرا في جميع المستجدات، فيتماشى نصه وفكرته مع نفسية وواقع المتلقين. «فالتكنولوجيا الحديثة هي ثورة عالمية لا يمكننا أن نتعامل معها بمنطق التجاهل، بل بمنطق الحكمة والدراية من أجل المنفعة العامّة. كما أنّه لا يجوز لنا أن نسخّرها من أجل إثارة العداوات وردود الأفعال السلبية».[30] ومن ناحية أخرى، على الخطاب الديني أن لا يتجاهل قضايا الأوطان المصيرية من جهة الضغوطات الخارجية والتيّارات الغربية التي تؤثّر في وحدة الوطن ووحدة أبنائه، وتعيث فساداً في الأرض، وتسعى لطمس هويته الدينية والثقافية والفكرية والمتمثلة في الآثار السلبية للعولمة. ولكنّه في الوقت ذاته يستطيع أن يخاطب الغرب بلغة يستطيع الغرب أن يفهمها ويعقلها ويضع لنفسه إستراتجية لتمرير أفكاره ومواقفه للآخر، ممّا يساهم في شرح الفكر الإسلامي وتوضيحه، وتصحيح الصور النمطية عن الإسلام وشعوبه .

3–خطاب يواكب العصرنة: تحتاج شعوب المنطقة العربية إلى خطاب ديني معاصر يحاكي مشكلاتها وتحدّياتها وواقعها وفكرها ويبين موقفها وحضارتها الإسلامية انطلاقاً من فكر ديني يجعل من النقل والعقل وسيلة لتحصيل الإيمان الصحيح، دون أن يتعارض مع التقدّم العلمي والتكنولوجي الحاصل في العالم خاصة في مجال الإعلاميات والسباق نحو التصنع والتسلح. فالمجتمعات العربية بحاجة إلى نهضة فكرية علمية دينية اجتماعية وثقافية، واستثمار ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، تعيد لها أمجادها الماضية المجيدة في الإسهام الفعّال في بناء الحضارة العالمية. «إنّ التحلّي بأدوات العلم والمعرفة وبالإيمان القويم هما السلاحان الأقوى لمواجهة التحدّيات المعاصرة. إذ يستطيع الخطاب الديني بتأثيراته المختلفة على الناس أن يكون وسيلة متجدّدة من وسائل التنمية البشرية بكلّ أشكالها. وأن يستنهض الواقع الشعبي العربي، فيعزّز من انتماء المواطن لوطنه ومجتمعه، وتماسكه ووحدته، ويبيّن له الإيجابيات المتوفّرة في حضارته الإسلامية العربية ليستخلص منها الدروس والعِبر في إصلاح الحاضر واستشراف المستقبل بناءً على أمجاد الماضي»[31]

4–خطاب من عمق الكتاب والسنة :

أي خطاب يلتزم بالعقيدة الإلهية وبالتقليد وبالتراث الديني، وبتسليم الأمانة من جيل إلى جيل في تواصل منتظم والارتكاز على مقوماته الأساسية خاصة القرآن والسنة لقوله تعالى:(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[32] وقول الرسول (ص): (تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي كتاب الله وسنتي). وتكون مرجعيته خالق الكون وتعاليم الأنبياء والكتب السماوية.« وتتناقل هذا الإيمان الأجيال لتطبعه بطابَعِها

الخاصّ وفهمِها، وبتعبير متجدّد منها لا يخالف الجوهر والأصل، ولا يردّد النصوص الإلهية بطريقة جامدة نمطية بدون فهم أو استيعاب. إنّنا نتطلّع إلى خطاب لا يكتفي بالشرح والتفسير للنصّ أو العقيدة، بل ينطلق من ذلك إلى المقصد الحياتي المعاصر يدقق فيه ويكشف خباياه ويتعامل مع دقائقه المتجددة التي هي نتاج التطور العلمي والاجتماعي».[33] و-أن يستفيد من النص القرآني المتنوع والغني والمتجدد في أساليب الخطاب، الذي اشتمل على جماليات الإقناع والاستمالة وفهم حقيقي للنفس البشرية، كما أن القرآن الكريم نوّع في الخطاب فاستعمل الجملة الخبرية والإنشائية واستفاد من أغراضهما في تحقيق مراد المتكلم، كما وظف القصة والأمثال لتقريب الفكرة وترسيخها في فكر وقلب المؤمن .

5-الخطاب الأمثل: على الخطاب الديني أن يتصف بخصائص الخطاب الأمثل وهي :ربانية المصدر والغاية، عالمية التوجه، إنسانية المنطلق، أخلاقية المحتوى، اقتران العقل بالروح، الجمع بين المثال والواقع والأصالة والمعاصرة والمحلية والعالمية، التوازن والشمول، الانفتاح، التخيير، التعدد، التدافع، التوسط، والاعتدال، الحوار، التنوع، النمو والاطراد، وهو يدعو إلى الاجتهاد ولا يتعدى الثوابت، يتبنى التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، يستشرف المستقبل ولا يتنكر للماضي، يؤمن بالشورى والتريث في اتخاذ القرار، يدين التخريب والإرهاب ويحض على الجهاد، ويرفض الانغلاق والتحجر والتطرف والغلو ويؤمن بالاختلاف والمرونة والتسامح»[34]

خامسا-الخطاب الديني المطلوب وإستراتيجية إعلامه[35] :

لقد نوه كثير من العلماء والمفكرين والكتاب والدارسين بضرورة الإسراع بتطوير خطابنا الإسلامي من واقعه الحالي والانطلاق به من خلال خطة علمية عصرية شاملة وجادة لتحقق له تلك الخصائص التي تقدم ذكرها، وهذا لن يتحقق إلا إذا التقى عدد كبير من الغيورين المشتغلين بقضية الخطاب الإسلامي في الدول الإسلامية والعربية ووحدوا جهودهم في برنامج علمي جاد يلتزم بإيجاز التوصيات الآتية :[36]

1-تكوين هيئة إسلامية عليا من رجال الفكر والدعوة المشهود لهم بالعلم والجدية، لتضع خططا وبرامج علمية شاملة لتطوير الخطاب الإسلامي بكل مستوياته وصوره وأساليبه، بما يمكنه من مواجهة الحاضر والمستقبل، مواجهة واعية ممكنة ويتم هذا أولا بإجراء مسح شامل للطاقات القادرة والجادة، وثانيا بتوحيد جهود كل المؤسسات العلمية والدعوية الرسمية وغير الرسمية .

2-استحداث إعلام يجدد الخطاب الديني ويرقى به إلى معالجة القضايا الهامة الحياتية للمسلمين خاصة المعاصرة، وإتاحة الفرص الكافية للعلماء والمفكرين المعتدلين لتقديم الإسلام الصحيح، فهذه أول خطوة جادة للقضاء العلمي على جيوب التطرف والإرهاب .

3-محاولة هذه الهيئة العليا محاورة أصحاب الخطاب المتطرف وتعريف الناس به من خلال وسائل الإعلام العامة لتوعية الشباب بحقيقته وتحذيرهم من عواقب الانضمام إليه، وإصدار فتاوى بمرجعية مؤسسات إسلامية عليا للرد الشافي على الخطاب .

4-تخصيص أقسام أو شعب في كليات الشريعة للدعوة والإعلام لتخرج متخصصين في هذا المجال، قادرين على أداء رسالتهم بما تمليه مستجدات الحياة وتتطلبه مواجهة العصر .

5-التأكيد على مبدأ الوسطية والاعتدال كما يراه الإسلام وذلك من خلال المقررات الدراسية والأنشطة الثقافية والاجتماعية الترفيهية، ومن خلال الخطب الجمعية .

6-الاهتمام بتعويد الناشئة على النقاش وآداب الحوار وحسن الاستماع وقبول الاختلاف، وغرس مبادئ السماحة والمرونة فيهم وذلك عن طريق التربية الأسرية والمدرسية .

7-ضرورة قيام الجهات المختصة بإعادة النظر في آليات الخطاب الديني عامة، والخطاب الإعلامي خاصة، وإسناد أمانات هذه المواقع الحساسة إلى أهلها المتخصصين .

8-الاهتمام بالآداب الإسلامية وترجمتها إلى لغات الشعوب الإسلامية، وكذلك الاهتمام بالأعمال الدرامية التي تخدم الدعوة والقضايا الإسلامية والعمل على تمكينها من منافسة دراما العالم المعاصر .

9-إعداد موسوعة إعلامية شاملة بكل لغات العالم الحية، وذلك بأقلام طائفة من المتخصصين المسلمين، لتعرف الباحثين والدارسين بالإسلام الحق، بدلا من اعتمادهم حتى الآن على موسوعات المستشرقين، وفي الوقت نفسه حصر الموسوعات والكتب المؤلفة عن الإسلام ذات المستوى الرفيع والصيت الذائع، لإعادة نشرها وترجمتها إلى عدة لغات حية وتوزيعها على مؤسسات التعليم والبحث العلمي، ومؤسسات الثقافة والإعلام في كل دول العالم .

10-ضرورة قيام الخطاب الإسلامي المعتدل بالتواصل والحوار مع مؤسسات الأمم الأخرى العلمية والثقافية والدينية والتربوية والسياسية، والحرص على متابعة أنشطتها والمشاركة فيها من خلال كفاءات علمية متمكنة ومخلصة وواعية.

الهوامش :

1. ينظر كمال عبد اللطيف ونصر محمد عارف: إشكالات الخطاب العربي المعاصر، دار النهضة العربية، د ط، ص:109.
2. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ابن منظور، لسان العرب ،دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992، مادة "خطب"، ج1، ص 360 .
3. ص: الآية 20 .
4. ص: الآية 23 .
5. الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2002، باب العين والدال، ج1، ص 9
6. الفرقان: الآية 63.
7. هود: الآية 37 .
8. أمين عبد الله الطيار: تأويل الخطاب الديني في الفكر الحداثي الجديد، حولية كلية أصول الدين، القاهرة، العدد 22، المجلد الثالث، 2005، ص 12 .
9. أبو العطا أشرف: تطوير الخطاب الديني كأحد التحديات التربوية المعاصرة، ملتقى الإسلام والتحديات المعاصرة، جامعة سوهاج، مصر، 2007، ص 6-7 .
10. سيد محمد سيد: المسؤولية الإعلامية في الإسلام، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1 ، 1406هـ 1986م، ص 45.
11. محمد خليفة: الإسلام وتطوير الخطاب الديني، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ، ص 58-77.
12. نفسه، ص:58-77.
13. عبد الوهاب كحيل: الأسس العلمية والتطبيقية للإعلام الإسلامي، عالم الكتب، القاهرة ، د ط، د ت، ص 123.
14. -نفسه، ص 125 .
15. يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة 2 ، 1999م، ص:17.
16. فهمي هويدي: إحقاق الحق، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ط1، 1989، ص:11.
17. ينظر: فؤاد زكريا: الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، دار المسيرة، لبنان، د ط، دت، ص:22- 39 .
18. محمد السماك: مقدمة إلى الحوار الإسلامي-المسيحي، دار الأقواس للنشر والتوزيع، ط1، 1994، ص:72-75.
19. ينظر: محمد عمارة: الخطاب الديني بين التجديد والتبديد الأمريكاني، دار الشروق، القاهرة، 1998، ص:13-19.
20. نفسه، ص: 25-30.
21. محمد خليفة: الإسلام وتطوير الخطاب الديني، ص:16-18
22. عبد الله شحاته: الدعوة الإسلامية والإعلام الديني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط2 ، 1986م، ص 22 .
23. نفسه، ص 23 .
24. محمد خليفة،: الإسلام وتطوير الخطاب الديني، ص 22.
25. نفسه، ص 22 .
26. نفسه، ص23.
27. نفسه، 24..
28. نفسه، ص 25 .
29. عبد الرحيم محمد المغدوي: الحوار الديني ودوره في مواجهة التطرف الديني، دار الهلال، القاهرة، 1990، ص 53 .
30. علي الكندري: تجديد الخطاب الديني، مجلة القبس، الأحد 14 سبتمبر 2008، العدد: 12679، السنة 37، ج 05، ص 12.
31. نفسه، ص 12 .
32. آل عمران : 103 .
33. علي الكندري: تجديد الخطاب الديني، ص 12 .
34. كمال عبد اللطيف ونصر محمد عارف: إشكالات الخطاب العربي المعاصر، ص:99-108.
35. نفسه، ص 109 .
36. نفسه ص 56 , 57، وينظر : مصطفى محمد بن الحاج، الخطاب الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1992،. ص 68 ،69.